Rimak International Journal of Humanities and Social Sciences

ISSN: 2717- 8293

Hutham Badr HUSSEIN [1]

THE BREAKDOWN OF SOCIAL SYSTEM AND THEIR REFLECTION ON POST-2003 NARRATIVES

http://dx.doi.org/10.47832/2717-8293.4-3.27

Research Article

Received: 14/03/2021
Accepted: 11/04/2021
Published: 01/05/2021

This article has been scanned by **iThenticat**
No plagiarism detected

Copyright © Published by Rimak Journal, www.rimakjournal.com

Rimar Academy, Fatih, Istanbul, 34093 Turkey
All rights reserved

Abstract:

(Parsons) defines the social system, of several definitions, and perhaps the clearest one is the one in which he believes that the social system is composed of two or more actors (individuals), each of whom occupies a distinct social position or and plays a distinct role, as it is an organized pattern that governs relations between individuals Or a network of interactive relationships that organizes their rights and duties towards each other, as it is a framework of common standards or values, as well as it includes different types of symbols and different cultural issues.

While the novel is a very complex structure, and it is difficult to imagine that it was born with an individual invention and without a basis in the social life of the group, it is not possible to imagine that this complex form has no similarity or dialectical relationship between it and the social life of the heroes, this literary form depicts the daily relationship of people. And their different relationships with the society in which they live, the novel as seen by (René Girard) is what reveals the truth about man and reveals the inauthenticity of the human being. And if we know that some see that the literary creator is no less important than the social world, but that he surpasses him in many stages due to his delicate sensitivity and his ability to capture the parts of social life, the anatomy of individuals' psyche, and to track the stages of social change and their implications for values and behavior And the directives, to what extent was the social system in Iraq able to maintain its social patterns, and what led to the collapse of that coherent system of social systems? And how was the Iraqi novel able to reverse this collapse in all its details? All this we will review in this research, which will be taken from novels published after 2003, material for it, and these narrations are:

1. The novel: Death in the Cherry Field.by the novelist Azhar Gerges.
2. The novel: The Killers, by the novelist Dia al-Khalidi.
3. The novel: the name on the soles, of the novelist Dia Jebili.

Key words: Social System , Azhar Gerges , Dia Al-Khalidi, Dia Jebili, War.

[1] Dr. , Al-Nahrain University, Iraq, Hutham.bader@yahoo.com, https://orcid.org/0000-0002-2196-439X

انهيار الأنساق الاجتماعية وانعكاسها على روايات ما بعد 2003

حـذام بـدر [2]

الملخص

تعدّ الرواية بناءً معقداً جداً، ومن الصعوبة بمكان تصور أنَّها ولدت باختراع فردي وبغير أساس في الحياة الاجتماعية للجماعة، ولا يمكن التصور بأنَّ هذا الشكل المعقد ليس له وجه تشابه أو علاقة جدلية بينه وبين الحياة الاجتماعية للأبطال، فهذا الشكل الأدبي يرسم بوضوح العلاقة اليومية للأشخاص وعلاقاتهم المختلفة مع المجتمع الذي يعيشون فيه، فالرواية كما يراها (رينيه جيرار) هي التي تكشف حقيقة الإنسان وتكشف عدم أصالة الكائن الإنساني. وإذا عرفنا أن هناك من يرى إنَّ الخالق الأدبي لا يقل أهمية عن العالم الاجتماعي، بل أنه يفوقه بمراحل في كثير من الاحيان، بحكم حساسيته المرهفة، وقدرته على التقاط جزئيات الحياة الاجتماعية، وعلى تشريح نفسيات الأفراد، وعلى تعقب مراحل التغيير الاجتماعي وانعكاساتها على القيم والسلوك والتوجيهات، فإلى أي مدى استطاع النسق الاجتماعي في العراق المحافظة على أنساقه الاجتماعية ؟وما الذي أدى إلى انهيار تلك المنظومة المتماسكة من الأنساق الاجتماعية ؟ وكيف استطاعت الرواية العراقية عكس هذا الانهيار بكل تفاصيله ؟ كل ذلك سنقوم باستعراضه في هذا البحث الذي سيتخذ من روايات نشرت ما بعد 2003 مادة له وهذه الروايات هي: رواية الموت في حقل الكرز للروائي أزهر جرجس، ورواية قتلة للروائي ضياء الخالدي، ورواية الاسم على الأخمص للروائي ضياء جبيلي.

الكلمات المفتاحية: أنساق اجتماعية، ضياء جبيلي، ضياء الخالدي، أزهر جرجس، حرب.

المقدمة:

يعرف (بارسونز) النسق الاجتماعي Social System تعريفات عدة وربما كان أوضحها ذلك الذي يرى فيه أنَّ النسق الاجتماعي عبارة عن فاعلين (أفراد) أو أكثر يحتل كل منهم مركزاً أو مكانة اجتماعية متميزة عن الأخر ويؤدي دوراً متميزاً، فهو عبارة عن نمط منظم يحكم العلاقات بين الأفراد أو شبكة من العلاقات التفاعلية وينظم حقوقهم وواجباتهم تجاه بعضهم البعض كما أنَّه يعدّ إطاراً من المعايير أو القيم المشتركة، فضلاً عن أنَّه يشتمل أنماطاً مختلفة من الرموز والموضوعات الثقافية المختلفة1.

ويؤكد (بارسونز) في كتابه النسق الاجتماعي أنَّ علاقة الأنساق الفرعية بالنسق الأكبر (المجتمع) تستلزم عدداً من المستلزمات أو المتطلبات الوظيفية إذا أراد له البقاء والاستمرار وقد قسمها على أربع وظائف أو مستلزمات:

وظيفة التكيف مع البيئة ، ووظيفة تحقيق الهدف، ووظيفة التكامل، و وظيفة المحافظة على النمط وإدارة التوتر وفيها يجب على كل نسق أن يحافظ بقدر الامكان على حالة التوازن وضبط التوتر والانحراف عن معايير وقيم المؤسسات الاجتماعية وذلك بتوجيه السلوك نحو التماثل مع القيم الثقافية والتحصن ضد حدوث سلوك فوضوي لا يتناسب مع متطلبات النسق2. ونجد أن التكيف وتحقيق الهدف والتكامل والمحافظة على النمط وإدارة التوتر هي من وجهة نظر التحليل الوظيفي تعدّ أساسية وعالمية في جميع الأنساق الاجتماعية ذلك لأن الفشل في انجاز هذه المستلزمات أو المتطلبات يؤدي إلى تعرض النسق الاجتماعي إلى الانهيار.

فإلى أي مدى استطاع النسق الاجتماعي في العراق المحافظة على تلك الوظائف ؟وما الذي أدى إلى انهيار تلك المنظومة المتماسكة من الأنساق الاجتماعية ؟ وكيف استطاعت الرواية العراقية عكس هذا الانهيار بكل تفاصيله ؟ كل ذلك سنقوم باستعراضه في هذ البحث الذي سيتخذ من روايات نشرت ما بعد 2003 مادة له وهذه الروايات هي:

1- رواية الموت في حقل الكرز لأزهر جرجس.
2- رواية قتلة لضياء الخالدي.
3- رواية الاسم على الأخمص لضياء جبيلي.

---

[2] د. جامعة النهرين، العراق، Hutham.bader@yahoo.com

النسق الاجتماعي:

يمكن تعريف النسق الاجتماعي على أنه " أيّ وحدة اجتماعية ضمن نظام اجتماعي تؤدي وظيفة ضمن شبكة معقدة يهدف أطرافها إلى تحقيق التكافل والاستقرار في المجتمع".

ومن التعريفات الأخرى تعريف ليفي بأنه: (أي نسق للسلوك الاجتماعي يتضمن جمعاً من الأفراد المتفاعلين).

ويعرّفه راد كليف براون بأنه: (مجموعة معينة من الأفعال والتفاعلات بين الأشخاص الذين توجد بينهم صلات متبادلة. ويسمى أيضا بالنظرية الوظيفية).

وتعدّ نظرية النسق من الإضافات التي قدمها (تالكوت بارسونز) وبلور معالمها لنمو وتطور النظرية البنيوية الوظيفية، وتدرس الأنساق الثلاثة وهي الثقافة، والشخصية، والنظام الاجتماعي.

فنسق الثقافة يتكون من العلاقات المتداخلة للقيم والمعتقدات والرموز المشتركة، التي توجد في أي مجتمع. ونسق الشخصية وهو نسق الدوافع والمؤثرات والأفكار، وكلها تتصل بالفرد. والنسق الاجتماعي هو مجموعة الأدوار ذات العلاقة المتداخلة، تلك الأدوار التي تحدد أو تشخص بوساطة المعايير المشتركة.

فالتكامل الموضوعي بين الأنساق الثلاثة يعني بأن الثقافة لا يمكن فهمها إلا عن طريق الشخصية والنظام الاجتماعي، وإن النظام الاجتماعي لا يمكن فهمه بدون فهم ودراسة واستيعاب الثقافة والشخصية3.

وهناك من يرى "إنَّ الخالق الأدبي لا يقل أهمية عن العالم الاجتماعي، بل أنهفوقه بمراحل في كثير من الاحيان، بحكم حساسيته المرهفة، وقدرته على التقاط جزئيات الحياة الاجتماعية، وعلى تشريح نفسيات الأفراد، وعلى تعقب مراحل التغيير الاجتماعي وانعكاساتها على القيم والسلوك والتوجيهات "4.

وتكاد الروايات الثلاث أنّ تتفق بأن الانهيار للنسق الاجتماعي المتعارف عليه قد بدأ في العراق منذ الحرب العراقية الايرانية فالحرب الطويلة مع المنظومة الشمولية المتسلطة نتجت عنها انهيارات في مجالات اجتماعية واسعة، فضلاً عن الحصار الاقتصادي لمدة طويلة أيضاً والتجويع القسري الذي مورس على الشعب العراقي أضافت انهيارات أخرى، لحقتها سقوط النظام السابق والحرب الطائفية، واختتمت بحرب داعش وسقوط مدن عراقية تحت وطأة الإرهاب، كل هذه المصائب صاغها الروائي العراقي مسجلاً وجعه المتنامي مع السنين،ويكاد أزهر جرجس يختصرها بالصورة الآتية إذ يقول: "وجوه الناس حكايات لاتشبه بعضها البعض، إلّا العراقيين فحكايتهم الحزن. كن عراقياً لتكون حزيناً"5.

فالإنسان العراقي أنسانٌ سيء الحظ جداً تكالبت عليه الآلام والمصائب بشكل متتابع فكيف يمكن أن يحتفظ هذا الإنسان بتوازنه الأخلاقي والقيمي؟

كيف من الممكن لتلك المنظومة الأخلاقية التي كان يتمتع بها قبل تلك الهزات أن تحافظ على سلامتها من التصدع والتثلم مرة تلو مرة؟ حتى باتت تشكل منظومة قيمية لاتشبه السابقة في شيء، بالتأكيد أن تلك الانهيارات كسرت شريحة واسعة من المجتمع إلا أنها لم تستطع كسر المجتمع ككل.

وهذا ما يؤكده الفيلسوف البريطاني هربرت سبنسر(1820-1903) بتطبيق نظرية (الاصطفاء الطبيعي على المجتمع) إذ يعمد سبنسر إلى تشبيهه بالجسد البشري، فبمثل ما تعمل الوحدات البنائية فيه – الهيكل العظمي والعضلات والعديد من الأعضاء الداخلية- بشكل مستقلّ لتساعد في بقاء العضوية ككل على قيد الحياة، فإن البناء الاجتماعي يتكاتف بالعمل للحفاظ على المجتمع6. وتكاد هذه النظرية تمنحنا الأمل في تحسن حالة الوضع الاجتماعي الذي يعيشه العراق في المستقبل على الرغم من التاريخ المتعالي على الذاكرة والمتخاصم مع العقلانية الذي سمم بيئاتنا ورسخ لثقافة العنف.

1- النوم في حقل الكرز لأزهر جرجس:

النوم في حقل الكرز رواية عراقية للكاتب المغترب أزهر جرجس ويروي بها قصة مهاجر عراقي يعيش في بلد أوربي، يتلقى في أحد الأيام رسالة تدعوه للحضور فوراً إلى بغداد، وحالما يصل يبدأ رحلة البحث عن عبير المراسلة الصحفية التي تساعده في العثور على أبيه الذي غيبه السجن بسبب موقفه السياسي من النظام السابق آنذاك ليعرف بأنه دفن في إحدى المقابر الجماعية وبعد العثور على المقبرة يعثرون على والده الذي يجب أن يستلم رفاته لأنه ولده الوحيد يقول:

"كان التراب يحشو ثقوب الجماجم، وتحت كل جمجمة وضعت مجموعة عظام غير مكتملة العدد. رأيت بعض الشباب يلمون اباءهم بالأكياس البلاستيكية وقطع القماش، ويذهبون نحو موظف الصليب كي يوقعوا على وصل الاستلام...اقتربت بعدما كاد اليأس أن يطبق على قلبي، من جمجمة متوسطة الحجم تنام قرب كوم عظام على أحد الأكياس. قرفصت وتناولتها، قلبتُها وصرت أعدّ ثقوبها ؛ ثقب ثقبان ثلاثة.. لقد دفنت حية، إذ لا أثر لثقب سابع فيها. حدقت فيها طويلاً ؛ كان سلك معدني يربط الأسنان ببعضها البعض. شعرت بأنها تخصني. أعدتها إلى مكانها. رصفت العظام تحتها فحصلت على أب غير مكتمل النصاب. التقطت له صورة، ثم وضعته في كيس بلاستيكي أسود وحملته ومضيت"7.

يرى (كولد مان) أنه "لا يمكن الفصل الجذري بين القوانين الأساسية التي تسيطر على السلوك الإبداعي في المجال الثقافي، وبين تلك التي تتحكم في السلوك اليومي لكل إنسان في الحياة اجتماعياً واقتصادياً"8 فالرواية تدون انهيارات

متتالية في المنظومة الاجتماعية العراقية بشكل عام، فالأخلاق الحميدة ترف تولده الحياة السعيدة المتزنة ونادراً ما يستطيع شعبٌ المحافظة على نسقه الاجتماعي المتوازن بعد كل هذه الهزات التي عصفت بشعب كالشعب العراقي وأول شيء نراه ينهار في منظومة الأخلاق يتمثل (بالوشاية) التي غذّتها الأنظمة الشمولية في النفوس حتى صار الأخ يخاف من أخوه والزوج من زوجه، والأب من أبناءه.

"لقد أدمنت أمي على تذكيري بحكاياتها مع ناصر مردان ؛ المعلم الذي خسر حياته لأنه لم يكتف بأن يحلم بالحرية، بل تطاول وتحدث عن حلمه بصوت مسموع. كانت تريد أن تملأ ذاكرتي بها، وتلصق في جفني صورته مسحولاً نحو حتفه لكي أحفظ عن ظهر قلب قاعدة مفادها أن الحديث عن الحرية في ظل نظام قمعي يشبه ممارسة الجنس على قارعة الطريق: احذر، سعيد...للجدران آذان"9.

تعود هذه الوشاية لتدمر حياة الابن بسبب نكته القاها في ساعة لهو مع صديق يبدو أنه ليس سوى مخبر سري يستدرج الطلبة ليدمر مستقبلهم في لحظة عابرة، لذا فالرواية تركز كثيراً في سير أحداثها وخراب حياة بطلها وهروبه من دولة لأخرى بسبب تلك الوشاية.

يصور لنا الروائي الواشي بشخص ضعيف الشخصية متلون يحاول بوشايته أن يثبت ذاته المقهورة أصلاً "التماهي بالمتسلط يشكل أحد المظاهر البارزة في سعي الإنسان المقهور لحل مازقه الوجودي والتخلف من انعدام الشعور بالأمن، والتبخيس الذاتي الذي يلحق به جراء وضعية الرضوخ. إنه كحل عبارة عن هروب من الذات وتنكر لها. وهروب من الجماعة وتنكر للانتماء إليها، من خلال التشبه بالمتسلط وتمثل عدوانيته وطغيانه ونمط حياته وقيمه المعيشية. إنه استلاب الإنسان المقهور الذي يهرب من عالمه كي يذوب في عالم المتسلط ونظامه آملًا في الخلاص"10.

إذا عدنا إلى محاولة فهم وتحليل الرواية نجد أن المشكلة الحقيقية التي ينبغي بحثها هي العلاقة بين الشكل الروائي ذاته وبناء البيئة الاجتماعية التي تنشأ في ظلها، أي بين الرواية كجنس أدبي وبين المجتمع المعاصر.

يتبنى جولدمان تعريفاً للرواية في أنها تاريخ بحث عن قيم حقيقية فوق عالم متدرج في مجتمع متدرج، هذا التدرج الذي يفصح عن نفسه - من وجهة نظر البطل- في رد القيم الحقيقية الى المستوى الضمني المضمر واخفائها وعدم الافصاح عنها كحقائق11.

ومن الواضح أن الرواية بهذا البناء تعدّ بناء معقداً، ومن الصعوبة بمكان تصور أنها ولدت ذات يوم نتيجة اختراع فردي وبغير أساس في الحياة الاجتماعية للجماعة. ومن غير المعقول، أن شكلاً أدبياً تميز بهذا التعقيد وبقى قروناً، ومارسه كتاب يختلفون فيما بينهم اختلافات بالغة وينتمون إلى بلدان متباينة، حتى أصبح الشكل المثالي الذي يمكن من خلاله التعبير عن حقبة بأكملها، كل ذلك بغير أن يوجد تشابه أو علاقة لها دلالة بين هذا الشكل وبين أكثر الجوانب أهمية في الحياة الاجتماعية.

والفرضية الأساسية التي وضعها جولدمان بصدد العلاقة هو أن الشكل الروائي يعدّ بديلاً -على المستوى الأدبي - للحياة اليومية في المجتمع الفردي الذي نشأ من الانتاج بهدف التوزيع في السوق، وعليه نجد أنه يوجد تشابه دقيق بين الشكل الروائي وبين العلاقة اليومية للناس مع الأموال بوجه عام، وأيضا علاقة الناس مع الناس الأخرين في مجتمع ينتج للتوزيع في السوق12.

ويستمر الروائي بتدوين انهيارات أخرى في المنظومة الاجتماعية العراقية فهو يسلط الضوء مثلاً على ثقافة شاعت منذ التسعينيات وهي ثقافة التزوير يقول:

"ضعيفة تغدو البلدان حين تضاجعها الحروب،فينتعش فيها سوق المضروب، ويبرز في سمائها نجم المزورين. يقول منير الواوي، أشهر نجوم التزوير في بغداد وضواحيها، بأن جوازات السفر التي يضربها أفضل بكثير من تلك التي تصدرها الدولة،وإن لا وثيقة مضروبة في بغداد إلّا ومرت من تحت يديه الحريريتين"13.فقد هرب الكثير من العراقيين خارج العراق ولأسباب كثيرة ومتعددة، وبالتأكيد مع كل هروب تجددت الحاجة لمن يزور أوراقاً ثبوتية أو جواز سفر ليستطيع السفر بها خاصة مع منع السفر عن فئات معينة في أيام الحصار الاقتصادي، ثم تجددت الحاجة الى التزوير أيام الطائفية بحيث صار للفرد هويتان تعريفيتان كل واحدة تشير لمذهب مغاير "واعتمل الخوف في أحشائي حتى كاد يغشى عليّ. لم أكن واثقاً مما كان عليّ إخراجه ؛ الهوية المحشورة في جيب القميص، أم تلك النائمة مع المحفظة في الجيب الخلفي للبنطلون ؟ عمر أم علي؟"14.

وإذا عدنا للهروب والهجرة فنجد أن لكل عقد من الزمن أسبابه المختلفة، ويبقى الهروب هو السمة المشتركة التي مرت عليهم، ففي الثمانينيات هرب البعض بسبب بطش النظام السابق بالأحزاب اليسارية والدينية وكذلك هرب البعض بسبب الحرب العراقية الإيرانية، وفي التسعينيات هرب العراقيون بسبب الجوع والعوز والمرض، وبسبب ظلم الدول مجتمعة بشعب لم يرتكب جناية سوى أنه يقبع تحت ظلم الاستبداد والدكتاتورية، ما بعد 2003 كان الهروب نوعياً، فمنهم من هرب بسبب انتماءه للنظام السابق، وأخر بسبب الطائفية وكان هناك هروباً داخلياً أي أن يهرب الفرد إلى مناطق معينة تتوافق مع مذهبه يقول:

"أمسى من الطبيعي أن يجد المرء جاره،الذي قضى معه ثلثي حياته، واقفا لدى الباب لتوديعه، كانت مظاريف التهديد المحشوة بإطلاقات نارية والتي ترمى ليلاً من تحت الأبواب، هي التي ترسم هوية الحي السكني وتختمه بالشمع الأحمر"15.
أو يهرب بسبب اختلاف الديانة كهروب المسيحيين يقول الروائي:
"سالت أخيراً عن أم طوني جارتنا الأرملة الطيبة التي كانت تزورنا على الدوام، وتخيط لدى أمي ثيابها، فقال بأنها حملت بناتها وهاجرت إلى كندا.
"عجيب لماذا فعلت ذلك ! ؟ أم طوني لا تنتمي إلى هؤلاء ولا اولئك " قلت مستغربا.
فأجاب بنبرة تفوح منها رائحة توبيخ غير مبرر:
"يبدو أن جنابك لا يدري بأن المسيحيين أول من طالته ماكنة التهجير في بغداد "16.
ما بعد 2014 أي بعد دخول داعش، كان الهروب داخلياً وخارجياً بعضهم هرب إلى محافظات أخرى سلمت من يد العدوان، وأخر هجر إلى دول أخرى قريبة جارة، أو حصل على لجوء لدول غربية.
يستمر البطل بسرد حكايته، من خلال لعبة الزمن فهو تارة يأخذنا للماضي وأخرى يعود بنا للحاضر، وعبر هذه الرحلة الدورانية بين استعادة ما مضى واحتمالات الحاضر التي تضعنا غالباً على شفا اللايقين، والشعور بفنطازيا مؤلمة تدون تاريخ العراق الحديث، يقول بعد أن يسرد إحدى القصص غير القابلة للتصديق:
"هذا لم يكن فلما هنديا بأية حال، بل هي حكاية عراقية واقعية بامتياز، لكن ؛ في بلاد الفنطازيا تختلط الحقيقة بالخيال فتمسي القصص عصية على التصديق"17.
الروائي استخدم تقنية تسمى " تذويت الكتابة" وهي سمة تسم النصوص الروائية الجديدة وتشمل الروايات المنتقاة في هذه الدراسة، وهي حرص الروائي على اضفاء سمة ذاتية على كتابته وذلك من خلال ربط النص بالحياة والتجربة الشخصيتين، وجعل صوت الذات الكاتبة حاضراً بين الأصوات الروائية لتمييز محتوى النص عن الخطابات الأخرى التي تعطي الأسبقية للقيم والأفكار الغيرية، والحرص على تذويت الكتابة يقترن بتوفير رؤية للعالم تحمل بصمات الذات الكاتبة18.
ومن هذه الزاوية، نلاحظ أن الروايات الجديدة تلجأ أكثر فأكثر إلى السيرة والتخييل الذاتي لاستحضار العالم وتمثيله تمثيلاً فنياً، وعندما تتناول موضوعات تستوحي واقع المجتمع وأسئلته، فإن الروائي الجديد يعمد إلى تذويت السرد وتعديد الأصوات واللغات، ما يجعل الكتابة ملتصقة بذوات الشخوص والمتكلمين داخل الرواية يقول الروائي على لسان البطل:
"أي محنة تلك التي وضعت السماء فيها أمي ؟!
وأي قدر سيئ جعلها أماً عراقية ؟! أن تكون المرأة أماً في العراق فذلك يعني بأنها كائن سيئ الحظ..هذه البلاد لا تشبع من قهر الأمهات"19.
يعود في صفحات الرواية الأخيرة لتصوير أزمة أخرى في عراق ما بعد 2003 وتلك أزمة الهوية والقتل الطائفي على الهوية فيقول على لسان البطل:
"كم نحن مساكين يا الهي !وكم يبدو هذا النوع من المصائر تراجيديا ! بين الموت والحياة هوية.. قاتل الله الهويات"20.
فالبحث عن الهويات الصغيرة الطائفية والدينية هو نوع من النكوص، فالعقلية التعصبية غالباً ما تكون نرجسية فالمتعصب يرى بأنه الوحيد الذي يكون دائماً على حق، وهو مؤمن ايماناً كلياً بفكرته، فبفضلها سيتوصل الى تغيير العالم سحرياً، وإلى اجتلاب الفردوس، فهو كما يرى فرويد في المرحلة الأرواحية يعزو لنفسه القدرة الكلية، أما في المرحلة الدينية فيتخلى عنها للآلهة ؛ وفي مستوى التصور العلمي، يعترف بضعفه وبحدوده، لذا فالمتعصب لا يتحمل الفكرة العلمية، ولا يقبل أن يرى حدود امكاناته البسيطة بوصفه بشراً ممكن أن يموت، لذا نراه غالباً ما يكون خليطاً من الفكرين الأرواحي والديني -على حد تعبير فرويد 21- لذا يعمد للسيطرة على الناس بقوة السلاح وبقوة القائد الذي يأتمر بأمره.
يقول الكاتب على لسان أحد ابطاله "لا أدري من منح هذا الشاب، برائحة فمه الكريهة، حق الترافع باسم الله ورسوله، ومن أين جاء بكلمة المرور التي خولته الدخول الى حساب الله، ومعرفة ما يريد الرب بشريعته أو ما لا يريد ؟ ثم أي شريعة هذه التي تسمح لصبيانها بخطف العزل والتنكيل بهم واذلالهم ؟! "22. فالمتعصب المنقاد يكون إمتثالياً للشخصية التي تمارس سطوتها وسحرها عليه، فهو يبحث عن الأمان من خلال اتحاده بشخصية كاملة القوة، فالمتعصب المنقاد على يقين لا يتزعزع بصحة أفكاره واسقاط العدوانية على الأخر (العدو المظنون)، اي أنه يقتل في سبيل الإنسانية (كما يرى)، ولا يمكن فهم عمل المتعصب مع الكره الذي يخفيه وراء تلك الواجهة (للإنسان العادل) ومع الهوى الذي يسكنه، إلا من خلال اعماق المنظومة النفسية وتياراتها الخفية23.

وبالنتيجة نرى أن التعصب يتخذ أشكالاً مختلفة دينية وعرقية وثقافية، إذ إن التطور الأخير للطائفة الوضعية الصغيرة يقدم لنا دليلاً غريباً.فهي تشبه ذلك العدمي الذي يخبرنا به الكاتب العميق دوستوفيسكي بقصته (ذات يوم وبعد أن اضاءت حياته أنوار العقل، كسر صور الآلهة والقديسين التي زينت مذبح كنيسته الصغيرة، أطفأ الشموع ودون أن يضيع لحظة وضع مكان الصور المدمرة أعمال الفلاسفة الملحدين مثل بوشنر وموليشيت ثم أعاد اشعال الشموع من جديد). لقد تغير موضوع عقائده الدينية لكن هل يمكننا حقا أن نعدّ عواطفه الدينية قد تغيرت ؟24.

2- رواية قتـلة للروائي ضياء الخالدي

وتتحدث عن عراق غارق في فوضى المجموعات المتقاتلة، كل مجموعة تنظر إلى نفسها على أنها المنقذ. فيما البلد يتمزق والجثث ترمى، والانفجارات تزرع الخوف من الموت في كل لحظة. القتلى تحولوا إلى أرقام. وروح الانتقام تسكن كل بيت.

عن هاوية الحرب الداخلية التي تجعل الموت عبثاً وتقفل طريق الخلاص يكتب ضياء الخالدي هذه الرواية..

هكذا كتب الناشر على الغلاف الخارجي للرواية25، التي تحدثت عن عماد الموظف الحكومي الذي يتحول الى واش وقاتل وهو يحاول أن يخلص البلد من السيئين كما أقنعه أصدقاؤه القدامى العائدين من الدول الغربية يقول :

"ترى، هل من المعقول أن عبود ترك لندن وعاد إلى بغداد من أجل توقنا الجنوني ؟يترك حياة الاسترخاء هناك ليعيش في عاصمة مصابة بوباء الحرب ؟

حين جاء ديار قبله بثلاثة أعوام تقريبا اتصل وكلمني عن حلمه. " اغتيال السيئين. تنظيف البلد من الانتهازيين والجهلة والمجرمين واللصوص بأيدينا " فوجئت بحديثه، لكن طالما راودتني هذه الفكرة المرعبة حين بدأ العنف. نحن في خريف أعمارنا، ولا وجود لمنطق يجعلنا نتمسك بتلك الحياة التي خسرناها"26. وإذا كنا قد تحدثنا عن الوشاية كنوع من انهيار النسق الاجتماعي فإن الوشاية هنا لها صيغة جديدة إذ لا تعني أن الواشي يخبر الحزب أو الشرطة أو أي شخص يمثل الدولة، وانما يخبر الفصائل المسلحة التي يختلف انتمائها من واحدة لأخرى، لذا مصير كل شخص مختلف معها دينياً أو مذهبياً أو أيديولوجياً هو الموت المؤكد، وإذ كنا نتساءل كيف يمكن لشخص موظف له تاريخ سياسي وإن كان هذا التاريخ بسيطاً، كما يصوره الروائي،أن يكون واشياً، فيجيبنا هنا غوستاف لوبون في كتابه سيكولوجيا الجماهير إذ يقول "إن خصوصية العناصر اللاواعية المكونة لروح عرق بشري ما تجعل أفراده متشابهين فيما بينهم، ويختلف هؤلاء الأفراد فيما بينهم بشكل رئيس في العناصر الواعية التي هي نتاج التربية والوراثة الاستثنائية، يمتلك البشر المتفاوتون في الذكاء غرائز وانفعالات وعواطف متشابهة جداً. في جميع الأمور المتعلقة بالعاطفة،الدين، السياسة، الأخلاق، الانفعالات والتنافر وما إلى ذلك، ونادراً ما يتجاوز البشر البارزون مستوى الناس العاديين. من وجهة نظر فكرية يمكن أن نجد هوة سحيقة بين عالم رياضيات وصانع أحذية لكن من وجهة نظر تخص الطبع غالباً ما يكون الفرق معدوماً أو صغيراً جداً"27.

إذن فلا نستغرب من تصرف عماد بطل الرواية، فله أسبابه التي اقتنع بها ليبرر الوشاية والقتل. فأمام إخفاقه السياسي والاجتماعي، ومحاولة استعادة الذات المضيعة، المهزوزة وعبر التحول من أيديولوجيا لأخرى مختلفة صنع لنفسه مبررات يداوي بها جريمته.

الرواية هذه تحدثت عن عراق 2006، ومن المعروف لنا أنه عام الطائفية المقيتة التي عصفت بالعراقيين، وأنهت حياة الكثير منهم قتلاً وتشريداً وتهجيراً، والكاتب هنا عراقي عاش هذه الأحداث وأراد أن يوثقها في روايته التي شهدت انهيارات متعددة لأنساق اجتماعية مختلفة، وهو يشابه الروائي أزهر جرجس في أرخنة أحداث مدمرة عاشها المواطن العراقي.يقول:

"التاسع من نيسان أذهلنا. أيّ شعور علينا أن نحمله ؟ كيف تبدو دواخلنا وقد شاهدنا الهمفيات والجنود الزنوج والشقر في أزقتنا ؟ سقطت تماثيل السيد الرئيس، وهرب صاحبها إلى المخابئ السرية، وإلى البساتين، قبل أن يُمسَك بلحيته الكثة المخيفة. كانت أعمارنا تختبئ بين شعيرات لحيته، ليترك لنا بعدها الدهشة والغضب والفرح والحزن والصدمة. هكذا نحن مثل طقسنا المتقلب، لا حدود واضحة تظهر لنا الأشياء في شكلها الحقيقي. دائما ثمة مفاجأة ما علينا انتظارها !"28.

في هذا النص الروائي والنص الذي سبقه نلاحظ أن السياسة اتخذت مظهراً مختلفاً، فالروائيان يرصدان الخراب الاجتماعي المنحدر من تطبيق سياسة تستبد بالقرار، وتحتقر المواطن، وتعزز الفوارق والتبعية وهو ما يجعل سلبيات السياسة في المجتمع العراقي تتجلى أساساً في تدهور القيم والسلوك الإنساني مما يسبب انهيار النسق الاجتماعي المتعارف عليه، فضلاً عن انهيار للقيم والأخلاق التي تعصف ببناء المجتمع وقيمه وسلوكياته.وبالتأكيد فأن هذه الروايات لا تسعى لتقديم الحلول لتلك الظواهر بقدر ما أنها تقوم بصياغة الاسئلة ورصد تلك السلوكيات واظهارها بشكلها المخيف لتطفو على السطح.

ركزت الرواية على فكرة أن هناك جهات مجهولة كانت تغذي الاقتتال الطائفي وتقوم بتمويل الأطراف المتقاتلة جميعها:

"في بغداد الآن خلايا يقتصر عملها على إثارة العنف وتغذيته. هناك غايات كثيرة بحسب من يدفع الدولارات. قد تمول إحدى الخلايا الطرفين المسلحين.
قال عبود وقد ابتسم بلا معنى:
العاصمة فيها تجار حروب وأزمات. شركات يافطاتها إنسانية وهي بالفعل وكر للقتلة"29.
فبعد سقوط النظام السابق، فتحت الحدود على مصراعيها لمن هب ودب للدخول إلى العراق، وهناك من قام بتصفية حسابات كثيرة قديمة، أو عمل لتخريب بنيان البلد لغايات مستقبلية.
وفي ظل هذا الخراب ودخول المخربين، وضعف عام بكل مفاصل الدولة، كثر الخوف لدى الناس فارتد كل منهم إلى مكونات أصغر، العشيرة أو الطائفة لحمايته.
إن "الإنسان المقهور الذي لم يتمكن من التصدي لقدره ومجابهة تحدياته،يلوذ بقوى تحميه ويجد نفسه في وضعية تبعية على مختلف الأصعدة، خاصة التمسك بالتقاليد والرجوع إلى الماضي والتماهي بأبطال القصص الشعبية،والذوبان في الجماعة، وفي الأسرة أو العشيرة.كل هذه الانتماءات ترسخ نمط النكوص الطفلي في مجابهة واقعه"30
يسلط الروائي الضوء على ظاهرة أخرى وهي ظاهرة السحر والشعوذة، فعندما لا تعود الأمور تسير حسب المنطق الصحيح لها يصاب البشر بالنكوص ويرتد للبدائل الغيبية في تفسير الأشياء، فالسحر والشعوذة وجد له سوقاً رائجة منذ الثمانينيات حيث البحث عن الأسرى والمفقودين لا يتم سوى بالذهاب إلى صاحب المرآة الذي يري الزوجة أو الأم ابنها المفقود على قيد الحياة، وهذا قد يعطيها أملاً وإن كان زائفاً لكنه أمل تستطيع به اكمال حياتها، مرة رأيت في برنامج تلفزيوني أحد أطباء النفس العراقيين يشرح لمقدمة البرنامج كيف أن السحر قد يكون خياراً أفضل في علاج بعض الحالات لأنه يعطي للمريض الأمل الذي قد يصعب على الطبيب اعطاءه، لذا يقول لها (الطبيب النفسي) إنهم يعالجون المرضى أفضل منا، توقفت كثيراً أمام هذا التصريح ولكني وجدته صحيحا جداً عندما لا يكون هناك حل لبعض الأمور، قد يلجأ الناس للغيبيات وللسحر لإيجاد الحلول التي تشعرهم ولو لوقت بسيط بالراحة، وهذا ايضاً يتبع الوعي الثقافي للناس، فالسحر ينشط غالباً مع الجهل والتخلف، وهما ينشأن مع كثرة الحروب وهذا أيضاً نوع من انهيار النسق الاجتماعي للمجتمع، يقول الروائي على لسان أحد ابطاله ((كما أواظب على قراءة كتب الفلك والتنجيم، وقد وصلت إلى أمور مدهشة مع الكتب الروحية، شمس المعارف الكبرى، وسحر الكهان للطوخي، والأجزاء الثلاثة من سحر هاروت وماروت، هي دليلي في الزمن العراقي !))31 ويضيف أيضاً((استحضرت الجن قبل ثماني سنوات، وعندي جني يأتمر بأمري، ومنذ العام 2003 وحتى اليوم أطلب منه اخباري بالطريق الآمن الذي أسلكه))32.فالطريقة الواثقة التي يتحدث بها بلال تقودنا إلى تحليل دقيق لشخصيته يمدنا بها علم الاجتماع، إذ إن اختلال التوازن الوجودي وانعدام تحقيق الذات ينتج عنه حالة من التوتر والقلق المفرط وانعدام الاعتبار الذاتي، لذا تبرز الحاجة إلى حلول لمجابهة هذه الوضعية المأزقية حلول تعيد بعض التوازن وتؤمن بعض الكبرياء وتجعل الوجود محتملاٍ أكثر33، هذا ما يمر به بلال فإن انعدام اعتباره لذاته خلق لديه حالة من الاحساس بالتميز في شيء لا يفهمه الأخرون هو السحر، ليؤمن له بعض الكبرياء والاحساس بالتفوق على الأخرين، فنراه مؤمناً تماماً بما يقوله.
يقول البطل في مكان أخر من الرواية ((أقلب كتب بلال الصفر، وأشاهد الجداول والأسهم والحروف المقلوبة والكلمات التي تبعث على الضحك. حقاً تأخذني السخرية إلى أبعد مدى أنا ألمس كيف أن العقل كلما قلت قدرته على المحاكمة بمنطق عشعشت فيه الخرافات، الكثير قد لا يصدق ما يفعله بلال، ومن يشابهونه، وربما عالم الجن عندهم من الخرافات، أو الأمور غير المحسومة، خاصة حين يمتد تأثيره إلى البشر. لكن الصورة تتسع لمشاهد كثيرة، وربما يظهر تنين في العاصمة ، أو وحش يستيقظ من كهوف التاريخ. كل شيء متوقع في بغداد...))34.
يعود الروائي ليصور لنا كيف أن البعض يجد أن من يقتل الناس هم من الجن وليس من الإنس ربما لأن هناك بشاعة في القتل التي لا يستطيع عقل الإنسان تصور أن هذه الافعال بشرية يقول ((يعتقد شمخي أن ثمة وحشاً أو سعلوة أو طنطلاً في مدينته الوشاش. يخرج في الليل ليقتص من الناس. هناك جثث ممزقة بأنياب غريبة وجدت في المزابل، ويحلف بالأولياء أنَّ أصدقاءه لمحوا الطنطل وهو يدخل أحد البيوت المسكونة، والتي هجرها أصحابها. ذلك البيت الذي كتب على جداره الخارجي عبارة " مطلوب عشائرياً" وخط على بابه عبارة أخرى " لايباع ولا يؤجر "))35.
"فالذهن المتخلف العاجز عن الغوص في تحليل الظواهر عمقاً واتساعاً مصاب بنوع من الصد المعرفي،...فهو أسير النقاط العمياء في عملية الإدراك التي تظل قاصرة ومليئة بالثغرات. ويرتبط هذا الأمر بعجز أساسي عن السيطرة على الواقع، ومن ثم شعور بالنقص تجاه ظواهر الطبيعة والعلاقات "36.
وإذا كانت كلمة لا تقتل التي كانت أمر ضمني لكل الثقافات والأديان السماوية منها والوضعية، فكان علينا أن نفصل بين الحضارة والبربرية، أن نعرف أن القتل هو طريق معبد للبربرية والوحشية التي غزت النفوس والعقول المجرمة، فرواية قتله تشير لهم جميعاً وتنبهنا أن من يقتل لا يجلب معه سوى الدمار مهما كانت مبرراته، وإن من يدفع بالمجاميع

المسلحة جميعها لإشاعة القتل هي ماكنة واحدة تمد الناس بالأموال لتخرب كل ما هو جميل على هذه الأرض، ليس هناك من منقذ سوى الوعي والمحبة والتسامح.

3- رواية الاسم على الأخمص لضياء جبيلي

يرى غوستاف لوبون " إنَّ الهمّين العظيمَين للإنسان منذ نشأته هما خلق شبكة من التقاليد.ثم محاولة تدميرها عندما تكون آثارها المفيدة قد تآكلت. فدون التقاليد لا يوجد حضارة ودون القضاء البطيء على هذه التقاليد لا يوجد تقدم، الصعوبة هي في العثور على توازن جيد بين الاستقرار والتنوع وهذه صعوبة هائلة 37.

وعلى هذا الأساس من عدم التوازن تتحدث رواية الاسم على الأخمص لضياء جبيلي التي خطت طريقها بالتركيز على مسألة في غاية الأهمية تقول بأن الخراب الذي نشهده الآن وانهيار الأنساق الاجتماعية في الوقت الراهن، قد تأسس منذ زمن طويل وأن الماضي هو من أسس لهذا العنف الذي نشهده خلال السنوات الأخيرة.

فالرواية تسير خلال سرد حكايتين منفصلتين إلا أنهما تلتقيان في نهاية الرواية من خلال سرد تاريخي لتطور العنف لدى الفرد العراقي، تبدأ الحكايتان منذ ستينيات القرن المنصرم لتصوِّر لنا صعود الحزب الحاكم آنذاك، وقسوته المفرطة تجاه الأحزاب الأخرى المعارضة له، التي انتهت بأصحابها في قعر السجون وأقبية أجهزة الأمن المعروفة بقسوتها، ومن نجى منهم فاراً إلى دول أخرى لكن يبدو أن الشعب الذي تترسخ تقاليده بشدة طيلة أجيال عديدة يصبح من الصعب أن يتخلى عن تلك التقاليد أو أن تمر بالتطور الذي تحدث عنه لوبون.

الحكايتان تنطلقان من البصرة (مدينة الروائي) في الحكاية الأولى تتحدث عن نعيم الموسيقيٍّ الذي يهرب من جبهات حرب الخليج الثانية إلى المخيّمات الأمريكيّة المقامة داخل الأراضي السعوديّة، ثم ينتقل بعدها كلاجئ إلى الولايات المتّحدة الأمريكية وهناك، يؤسّس حياةً جديدة رافضة لهويته الأم لكنه يفشل في أن يبني لنفسه حياة جديدة فالكل يعامله كلاجئ فقد بنى شكله العربي جداراً صلداً أمام رغبته العارمة بالتخلص من هويته العراقية حتى بعد زواجه من أمريكية وانجابه لولد وبنت هناك، هذا فضلاً عن أنه لا يستطيع التماهي مع الثقافة الغربية المشاعة والمتسامحة مع العري والحريات المفرطة لذا لا يحتمل عمل ابنته كعارضة للأزياء وانتشار صورها العارية على صفحات المجلات، لذا يقوم بقتلها والهرب من أمريكا والانضمام الى صفوف تنظيم الدولة الإسلامية في سوريا.

يبقى ولده عوف في الولايات المتّحدة وتتجذر لديه الرغبة بالانتقام من والده الذي قتل شقيقته، الأمر الذي يدفعه إلى الالتحاق بصفوف الجيش الأمريكيّ كمحاولة لتنفيذ هذه المهمّة، إلّا أنّ عوف لن يتمكّن من قتل والده، لأن الأخير يقوم بتفجير نفسه بحزام ناسف ليقتل ولده أيضاً دون أن يعرف ذلك.

أما الحكاية الثانية فتتحدث عن معلم شيوعي (السيد النائب كما يسميه الروائي) يغادر العراق إلى الاتحاد السوفيتي محملاً بانكساراته وأمله بحياة جديدة سعيدة في ملاذه الأمن ليتزوج من روسية شيوعية وينجب منها ولداً وتطلقه بعد ذلك، يترك الطلاق لديه جرح عميق فيترك ولده الوحيد في أحدى الملاجئ هناك، ويذهب للالتحاق بحركة الانصار الشيوعيين وبعد اصابته هناك يتحول من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين لينضم للأحزاب الدينية التي تضمن له مقعداً في البرلمان بعد 2003.

يقوم نيكولاي الذي تركه والده – المعلّم الشيوعيّ – في موسكو قبل مغادرتها بانتظار والده أن يأتي ليخلصه من الحياة القاسية في الملجأ، وعندما يعلم بأن والده مازال على قيد الحياة وأنه لم يكلف نفسه حتى عناء السؤال عن الطفل الذي تركه وراءه، تتولد لديه رغبة بالانتقام لذا ينضم إلى مقاتلي داعش في سوريا قبل أن يتسلل إلى بغداد ويقوم بقتل والده.

تتمظهر الرواية على نوع من السرد يميزه تودوروف بالرؤية من الخلف، يكون فيها السارد أكثر معرفة من الشخصية الروائية (السارد، الشخصية)، إنه يرى ما يجري خلف الجدران، كما يرى ما يجري في ذهن بطله وما يشعر به في نفسه، فليس لشخصياته الروائية أسرار. وتتجلى شمولية معرفة السارد أما في معرفته بالرغبات السرية لدى إحدى شخصيات الرواية التي قد تكون غير واعية برغباتها أو في معرفته لأفكار شخصيات كثيرة في آن واحد وذلك ما لا تستطيعه أي من هذه الشخصيات، وأما في سرد أحداث لا تدركها شخصية روائية بمفردها، إنه سارد عالم بكل شيء وحاضر في كل مكان38.

الرواية تتحدث عن أزمة الهوية، وانقلاب في الآراء والأفكار فعندما يعمد نعيم في القصة الأولى إلى نسيان وطنه ومحاولة التماهي بالجنسية الأمريكية تطارده ذكرياته التي لا ترحمه من الحنين لذلك الوطن الذي يحاول البطل التنصل منه ونسيانه يقول:"لم تكن المهمة بالبساطة التي تصورها نعيم، واجهته الكثير من العوائق التي لم تكن كذلك في الواقع، أنما كانت عبارة عن رسائل لا يعلم من أين تأتي، ومن هو مرسلها. رسائل عادة تجلبها ريح مجهولة على شكل جملة شعرية ترافق شعوراً بالتسليم وحسرة طويلة يمكن تخيلها وهي تخرج من شخص ذي خبرة وباع طويل في المحاولات الفاشلة لنسيان الأوطان...فلا صحة لما يتردد على ألسنة البائسين والمحبطين عن ضياع الأوطان، يبقى للأمكنة الأولى أرواحاً تطارد المهاجرين والهاربين والمنبوذين، وثمة رائحة للتراب تستدر أنزيمات الحنين، وتدفع إلى المحاكاة ونقل ما أمكن نقله من ثقافة وتقاليد وموروثات وأسماء إلى الأرض الجديدة "39.

ولعل التنمر الذي كان يعاني منه هو وولديه دفعه لهذا الحنين بعد أن صار عصياً عليه بسبب شكله ودينه أن يتماهى تماماً مع جنسيته الجديدة يقول " كان عوف وقتها في الثامنة من عمره، وآشلي في السابعة ،كانا صغيران، ولا يفهمان كثيراً مغزى مفردة إرهابي التي صار يطلقها الأولاد في المدرسة على أبيهم "40.

فضلاً عن رفض والد زوجته له ووصفه بأبشع الأوصاف وتحميله مسؤولية ما تقوم به الجماعات الإرهابية من تفجير وقتل كل هذا دفعه للانقلاب والتحول السريع يقول الروائي:"لم يقتنع عوف بالسبب الذي تظن أمه أنه وراء حالة أبيه المتردية، لكنه في الوقت نفسه لم يخبرها أن قراءات هذا الأب لم تقتصر على القرآن فقط، إنما شرع بقراءة كتب الجهاد الإسلامي التي رآه يخبئها في مكان خفي من المنزل، وأنه حاول مؤخراً إجباره على الذهاب للصلاة في المسجد، وأنه لم يبع آلاته الموسيقية إنما أتلفها. أحرق النايات، وهشم الطبلة الفخارية ودفن الساكسفون تحت الأرض في الفناء الخلفي"41.

فيبدو أن نعيم يمر بما يمكن أن نسميه بالهدر الإنساني الذي يعمل على تحطيم مشروع صناعة الوجود والمصير والقيمة، فهو يحمل دلالة الخسارة، ويحمل الهدر واحدة أو أكثر من الثنائيات الضدية مما يفجر الانفعالات الأكثر ايلاماً التي تعصف بوجود الانسان المهدور ويتلازم في الهدر كل من الاكتئاب والغضب، فالهدر يتلازم مع انتقاص القيمة والدلالة والمكانة، مما يشكل نوعاً من الإهانة الوجودية، فإذا سلم الشخص بانتقاص المنزلة والقيمة فإنه ينمي هوية الفشل بدل النجاح، وإذا اتخذت الخسارة طابع الظلم غير المستحق فأنها تنقلب إلى غضب عارم على الناس وتطلق حالة من العدوانية التي تقض كيان الانسان المهدور42.

ويشابهه البطل الآخر في الرواية المعلم الشيوعي أو (السيد النائب كما يسميه الروائي) في الانقلاب والتحول السريع من الأفكار الماركسية إلى التعصب الديني "أحس السيد النائب أن ثمة شيء لم يعدّ على ما يرام، بدأ مؤخراً ينغص عليه حياته، ولا يريد له الاستمرار به، لعله الاحساس الفظيع بالذنب، واستحالة توافق إيمانه المفاجئ بالله مع أفكاره الماركسية اللينينية الداعية إلى استئصال شأفة الأديان من تاريخ الإنسانية"43.

فأسباب كثيرة تلك التي جعلت السيد النائب يتصرف بالشكل الذي ورد في الرواية، فقد تركته أمه أولاً وتزوجت رجلاً أخر بعد وفاة والده، ثم تركته زوجته الروسية بعد أن أحبت غيره، هذا جعله يقنع نفسه أن ولده ربما ليس من صلبه، لذا تركه دون السؤال عنه، ثم انقلب على أفكاره الحزبية لأنها مثلت له الأفكار نفسها للزوجة الشيوعية الخائنة، فعند التعرض للعنف والإهانة فإن النفس البشرية تحقق لنا تبريراً خلقياً يجيز لنا الرد على تلك الإهانة وذلك العنف، وقد يكون هذ الرد بلا حدود معقولة لذا تمكنت هذه الإستراتيجية من تطوير وسيلة لامتناهية لإعادة تسمية العدوان بأنها معاناة ومن ثم تبرير هذا العدوان، وأظن أن هذا ما سارت عليه أحداث القصة الثانية في الرواية.

الرواية عانت من الترهل والحشو في سردها واللجوء إلى أحداث ليست ذات قيمة مضافة للبنية السردية، على الرغم من أن الروائي أراد أن يوصل لنا عبر هذه الرحلة الطويلة من السرد حياة العراقيين في الداخل والخارج ومحنتهم التاريخية والشخصية والأيديولوجية، وما يفعله القمع والسياسة الدكتاتورية والتطرف في حيوات أولئك الأشخاص، وكيف ينعكس هذا كله عبر هروبهم الطويل الى الخارج ومن ثم الرجوع للداخل محملين بأيديولوجيا تختلف تماماً عن تلك التي خرجوا بها.

الرواية تشهد فضلاً عن الانقلابات الأيديولوجية انقلاباً أخر اجتماعياً فينقلب فيه الاباء على أبنائهم يلحقه انقلاب الأبناء على ابائهم ومن ثم قتلهم. لذا تنتهي الرواية بمشهد يكشف تصعيداً دارمياً للحدث تلك اللحظة التي يقتل بهل نيكولاي والده النائب يقول "جثا فوق الجسد المسجى على السرير. رفع رأس أبيه عن الوسادة قليلاً، ومرر السلك من تحت رقبته من الخلف، وبحركة سريعة قام بنتره حول الرقبة بقوة...وكما لو أنه يفعل ذلك بعد نوبة اختناق طويلة، تنفس بعمق، وغادر المكان مسرعاً "44 .

فقد تسرب العنف إلى نفس الأولاد الفاقدين لحنان الأب ليتحول هذا الفقد إلى تحطيم الذات المبخسة وتحولها إلى ذات تحطم وتخرب كل شيء في نوع من قلب الأدوار حيث يتحول الإنسان المهدور إلى كائن هادر _على حد تعبير حجازي- فتبرز لذة التخريب الذي يبدو مجانياً ظاهرياً، إذ لا يفيد القائم به من أي فائدة مادية، إنما يتعدل ميزانه النفسي والوجودي من خلال إطلاق العنان لنزوة الموت والتدمير التي تفعل فعلها كرد فعل على تعطيل نزوة الحياة والنماء والكيان ذي الاعتبار45.

إنَّ الحرب هو وضع معقد وضع فيه الإنسان العراقي بمواجهة مصيره، والكتابة عنه أمر في غاية الصعوبة خاصة أن الكاتب ما يزال لحد الأن تحت وطأة صدماتها وآثارها، ولايزال الجدل قائماً بين المثقفين حول هذه الحرب التي لا أحد يريدها، لكن في غمار هذا الجدل العبثي ينسى المتجادلون أن هذه الحرب تتجاوز عنواناتها ومسبباتها، إنها حرب يومية الكل فيها ضحايا، حتى المثقفين لم يستطيعوا أن يتخذوا منها مواقف واضحة، لذا نراهم يقومون بالكشف عن الجانب المخفي من تراجيديا الوجود المأساوي.

فللرواية خاصية مميزة أنها طرحت الاسئلة الجوهرية المتعلقة بالحب والفن والموت والقتل والهجرة والأيديولوجيا، وقد صاغها الروائي عبر شكل روائي يوحي ولا يجزم يتدثر بالالتباس ويفسح المجال لأكثر من رأي. وضمن الثنائية المستعصية الانفتاح والحوار والصراع مع الآخر.

النتائج التي توصل إليها البحث:

1. تكاد الروايات الثلاث تتفق بأن الانهيار للنسق الاجتماعي المتعارف عليه قد بدأ في العراق منذ الحرب العراقية الايرانية فالحرب الطويلة مع المنظومة المتسلطة للأنظمة الشمولية نتجت عن انهيارات في مجالات اجتماعية واسعة، فضلاً عن الحصار الاقتصادي لمدة طويلة أيضاً والتجويع القسري الذي مورس على الشعب العراقي أضافت انهيارات أخرى، لحقتها سقوط النظام السابق والحرب الطائفية، واختتمت بحرب داعش وسقوط مدن عراقية تحت وطأة الإرهاب، كل هذه المصائب صاغها الروائي العراقي مسجلاً وجعه المتنامي مع السنين.
2. عند محاولة فهم وتحليل الرواية تظهر لنا المشكلة الحقيقية التي ينبغي بحثها وهي العلاقة بين الشكل الروائي ذاته وبناء البيئة الاجتماعية التي تنشأ في ظلها، أي بين الرواية كجنس أدبي وبين المجتمع المعاصر.
3. في النصوص الروائية نلاحظ أن السياسة اتخذت مظهراً مختلفاً، فالرواية رصدت الخراب الاجتماعي المنحدر من تطبيق سياسة تستبد بالقرار، وتحتقر المواطن، وتعزز الفوارق والتبعية وهو ما يجعل سلبيات السياسة في المجتمع العراقي تتجلى أساساً في تدهور القيم والسلوك الإنساني مما يسبب انهيار النسق الاجتماعي المتعارف عليه، فضلاً عن انهيار للقيم والأخلاق التي تعصف ببناء المجتمع وقيمه وسلوكياته.وبالتأكيد فأن هذه الروايات لا تسعى لتقديم الحلول لتلك الظواهر بقدر ما أنها تقوم بصياغة الاسئلة ورصد تلك السلوكيات واظهارها بشكلها المخيف لتطفو على السطح.
4. إنَّ أهم انهيار في النسق الاجتماعي في العراق هو أزمة الهوية، وتكاد الروايات الثلاثة تتفق في عرض هذه الأزمة لما تمثله من أهمية دقيقة .
5. للرواية خاصية مميزة أنها طرحت الاسئلة الجوهرية المتعلقة بالحب والفن والموت والقتل والهجرة والأيديولوجيا، وقد صاغها الروائي عبر شكل روائي يوحي ولا يجزم يتدثر بالالتباس ويفسح المجال لأكثر من رأي. وضمن الثنائية المستعصية الانفتاح والحوار والصراع مع الآخر.

المصادر والمراجع :

أزهر جرجيس. (2019). النوم في حقل الكرز. بيروت،لبنان: الرافدين للنشر والتوزيع.

السيد ياسين. (1991). التحليل الاجتماعي للأدب. القاهرة،مصر: مكتبة مدبولي.

اندريه هاينال، و ميكلوس مولفار. (1990). سيكولوجيا التعصب. دار الساقي.

د.رياض الأسدي. (ديسمبر, 2006). أدب الحرب. صحيفة الشرق الأوسط.

د.طاهر حسن زيباري. (2016). النظرية السوسيولوجية المعاصرة. عمان،الأردن: دار البيروني للنشر والتوزيع.

د.محمد برادة. (2011). الرواية العربية ورهان التجديد. دبي: الصدى للصحافة والنشر والتوزيع.

د.مصطفى حجازي. (2016). التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجيا الإنسان المقهور. بيروت،لبنان: المركز الثقافي العربي.

د.مصطى حجازي. (2019). الإنسان المهدور دراسة تحليلية نفسية اجتماعية. الدار البيضاء،المغرب: المركز الثقافي العربي.

صلاح فضل. (1978). منهج الواقعية في الإبداع الأدبي. القاهرة: دار المعارف.

ضياء الخالدي. (2012). قتَلة. لبنان: التنوير للطباعة والنشروالتوزيع.

ضياء جبيلي. (2018). الاسم على الأخمص. بغداد: سطور للنشر والتوزيع.

غوستاف لوبون. (2019). سيكولوجية الجماهير. (احمد حايك، المترجمون) بيروت،لبنان: الرافدين للطباعة والنشر.

محمد بو عزة. (2010). تحليل النص السردي. لبنان: منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون.

وكيبيديا النسق الاجتماعي. (15 ,7 2020). تم الاسترداد من https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%86%D8%B3%D9%82_%D8%A7%D8%AC%D8%AA%D9%85%D8%A7%D8%B9%D9%8A.

الهوامش

1 د.طاهر حسن زيباري. (2016). النظرية السوسيولوجية المعاصرة. عمان،الأردن: دار البيروني للنشر والتوزيع:ص(170)
2 ينظر :د.طاهر حسن زيباري. (2016). النظرية السوسيولوجية المعاصرة. عمان،الأردن: دار البيروني للنشر والتوزيع:ص(171)
3 ينظر : وكيبيديا النسق الاجتماعي. (15 ,7 2020). تم الاسترداد من
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%86%D8%B3%D9%82_%D8%A7%D8%AC%D8%AA%D9%85%D8%A7%D8%B9%D9%8A.
4 السيد ياسين. (1991). التحليل الاجتماعي للأدب. القاهرة،مصر: مكتبة مدبولي:ص(9).
5أزهر جرجيس. (2019). النوم في حقل الكرز. بيروت،لبنان: الرافدين للنشر والتوزيع:ص(216).
6 ينظر : وكيبيديا النسق الاجتماعي. (15 ,7 2020). تم الاسترداد من
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%86%D8%B3%D9%82_%D8%A7%D8%AC%D8%AA%D9%85%D8%A7%D8%B9%D9%8A.
7 أزهر جرجيس. (2019). النوم في حقل الكرز. بيروت،لبنان: الرافدين للنشر والتوزيع:ص(192-193).
8 صلاح فضل. (1978). منهج الواقعية في الإبداع الأدبي. القاهرة: دار المعارف:(ص240).
9 (جرجيس، 2019): ص(35).
10 د.مصطفى حجازي. (2016). التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجيا الإنسان المقهور. بيروت،لبنان: المركز الثقافي العربي :ص (123).
11 ينظر:(ياسين، 1991):ص(44).
12 ينظر : (ياسين، 1991): ص (44).
13 (جرجيس، 2019): ص(42).
14 (جرجيس، 2019): ص (187).
15 (جرجيس، 2019): ص(167).
16 (جرجيس، 2019):ص (167).
17 (جرجيس، 2019): ص(58).
18 د.محمد برادة. (2011). الرواية العربية ورهان التجديد. دبي: الصدى للصحافة والنشر والتوزيع:ص(67).
19 (جرجيس، 2019):ص(41).
20 (جرجيس، 2019): ص(187).
21ينظر : اندريه هاينال، و ميكلوس مولفار. (1990). سيكولوجيا التعصب. دار الساقي:ص(18)
22 (جرجيس، 2019): ص(200).
23 ينظر : (هاينال و مولفار، 1990): ص(12-13).
24 غوستاف لوبون. (2019). سيكولوجية الجماهير. (احمد حايك، المترجمون) بيروت،لبنان: الرافدين للطباعة والنشر:ص(111).
25 ضياء الخالدي. (2012). قتلة. لبنان: التنوير للطباعة والنشروالتوزيع.
26 (الخالدي، 2012): ص(34)
27 غوستاف لوبون. (2019). سيكولوجية الجماهير. (احمد حايك، المترجمون) بيروت،لبنان: الرافدين للطباعة والنشر:ص(69-70).
28 (الخالدي، 2012) : ص(62).
29 (الخالدي، 2012) :ص(66).
30 (حجازي، 2016) : ص(132).
31 (الخالدي، 2012): ص(123).
32 (الخالدي، 2012): ص(124).
33 ينظر : (حجازي د.، 2016) :ص(97).
34 (الخالدي، 2012) : ص(158).
35 (الخالدي، 2012) :ص(68).
36 (حجازي، 2016): ص(63-64).
37 (لوبون، 2019) : ص(120).
38محمد بو عزة. (2010). تحليل النص السردي. لبنان: منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون:ص(76-77)
39 ضياء جبيلي. (2018). الاسم على الأخمص. بغداد: سطور للنشر والتوزيع:ص(91)
40 (جبيلي، 2018) : ص(91).
41 (جبيلي، 2018) : ص(113).
42 ينظر : (حجازي د.، 2019) :ص(285).

43 (جبيلي، 2018): ص(272).
44 (جبيلي، 2018): ص(414).
45 ينظر : (حجازي د.، 2019) : ص(294).